التربية وتعاطى المخدرات

سعاد قادوش
مخبر علوم اللغة والاتصال

إن موضوع التربية متشعب بشكل يصعب الإلمام به من كل جوانبه وتزداد هذه الصعوبة إذا حاولنا ربطه بموضوع الصحة، ولهذا سنركز على التربية ضمن أسر يتوفر لديها المحيط الاجتماعي بشكل يسمح للأبناء بمواصلة الحياة ومزاولة الدراسة مع وجود أمل فى المستقبل، ونركز فى موضوع الصحة على وباء تعاطى المخدرات الذى يمس الشباب بشكل خاص، وسنحاول من خلال عرضنا إبراز ما إذا كانت هناك علاقة بين التربية التى يتلقاها الأبناء داخل أسرهم وميلهم لتعاطى المخدرات فى فترة معينة من شبابهم.

كل ما يتلقاه الطفل منذ الميلاد من رعاية يدخل ضمن الإطار العام للتربية، ولهذا فأول مربى للطفل هو الأم رغم تدخل عناصر أخرى بشكل مباشر أو غير مباشر، ويكون إشباع الحاجات الفيزيولوجية المتعلقة بالجوع والعطش من الأوليات فى تربية الطفل ثم يليها الاحساس بالارتياح من جراء تغيير الحفاظات، على ما فى ذلك التحقيق من توابع فى إشباع حاجات نفسية تتزامن والإشباع الفيزيولوجى والمتعلقة بالحب والأمن حيث تنشأ بين الأم والطفل رابطة الحب والألفة والتى أساسها الاهتمام ثم ولأن فترات الرعاية متتالية يجد الطفل نفسه محميا بتواجد الأم معه كلما أفاق، ولهذا وبعد شهور قليلة يقلق لغيابها ويطالب بحضورها من خلال البكاء كلما وجد نفسه وحيدا.

وإذا حدث لأسباب معينة انفصال الطفل عن أمه أصيب بقلق وهلع «قلق الانفصال الذى قد يتطور فيما بعد إلى فوبيا اجتماعية» يتحول إلى تعلق شديد بعد اللقاء فيظل الطفل متشبثا بأمه لا يفارقها ويتبعها أينما ذهبت مما يفوت عليه فرصة تطوير مهارات اجتماعية «اللعب مع الأطفال، الذهاب فى مشاوير». وإلى جانب الأم، يألف الطفل أفرادا آخرين يتعود على رؤيتهم كالاخوة والأب، ولأن رابطته بالأم تكون قوية فإنه سيحب كل من تحب أمه «تجالسهم وتضحك معهم» وسيكره كل من تكره «تنفر منهم أو تتخاصم معهم».

قد يكون هؤلاء الأفراد ضمن العائلة الكبيرة: جدته «أم ابيه» أو أعمامه، ويكون ذلك سببا فى تأزم وضعيته الاجتماعية «عدم الارتياح لهم، نقص الثقة بهم»، أو الجيران مما يحول محيط الطفل من المريح إلى اللاأمن.

ويبدأ الطفل فى اكتساب اللغة منذ سن الثانية وتظل فى تطورها وهى وسيلته للتوصل وللتكيف بحيث تسمح لهم بفهم الآخرين وتمكنه من الرد عليهم وبالتالى تنشأ الرابطة الاجتماعية، والطفل الذى يكثر التواصل بالكلام يكتسب خبرات ويطور مهارات أكثر من الطفل الذى يلتزم البعد عن الآخرين «الانسحاب». وفى حدود سن الرابعة يبدأ الاتصال مع الأطفال وتحقيق الصحبة فى اللعب وربما الانتماء إلى مؤسسات «مدرسة المسجد، الروضة».

إن مستوى تكيف الطفل فى المؤسسات والمحيط الجديد يعكس وضعيته النفسية فمنهم من يتأقلم بسهولة ويكون ذلك مصدرا لسعادته، ومنهم من يظهر العدوان وكثرة الخصام أو المليل إلى الانسحاب ورفض الاندماج، ولهذا فسلوك الطفل فى الشارع والروضة يبعث على الارتياح أو يحث على تدارك الوضع وتصحيحه فى حالة الأزمة حتى لا يتفاقم. ويستهل الطفل المدرسة فى سن السادسة ويبدأ مشواره التعليمى بمستوى قدراته يديره الوالدان ضمن مشروعهم المستقبلى «ماذا نريد للطفل أن يكون!» يحتاج الطفل هنا إلى متابعة خاصة وإدارة دائمة، فهو فى موقف تحصيل علمى وتطوير معرفى وقدرات وهو أيضا فى موقف علائقى اجتماعى واسع «زملاء كثيرون»، فقد يحتاج إلى سند تعليمى أو سند لحل المشكلات الأخرى وبالتالى فمهارة الطفل تتبع مهارات الوالدين واتجاهاتهم.

أما أن يلقى الطفل من والديه التسهيل فى فهم المواد التعليمية والتشجيع لبذل جهد أكبر، وأما أن يلقى الذم والتوبيخ لعدم قدرته على فهم أمور يراها الوالدان بسيطة وكل الأطفال يفهمونها؟! ويشرعون فى محاولة إفهامها له فى جو يسوده التقليل من شأنه فيتكون لديه شعور بالنقص ونفور من فكرة اللجوء إلى الوالدين فى حالة مواجهة الصعوبات، واحتمال اتهامه بالتفاهة وعدم حب الدراسة وقلة الجهد المبذول

التربية وتعاطى المخدرات

سعاد قادوش
مخبر علوم اللغة والاتصال

إن موضوع التربية متشعب بشكل يصعب الإلمام به من كل جوانبه وتزداد هذه الصعوبة إذا حاولنا ربطه بموضوع الصحة، ولهذا سنركز على التربية ضمن أسر يتوفر لديها المحيط الاجتماعي بشكل يسمح للأبناء بمواصلة الحياة ومزاولة الدراسة مع وجود أمل فى المستقبل، ونركز فى موضوع الصحة على وباء تعاطى المخدرات الذى يمس الشباب بشكل خاص، وسنحاول من خلال عرضنا إبراز ما إذا كانت هناك علاقة بين التربية التى يتلقاها الأبناء داخل أسرهم وميلهم لتعاطى المخدرات فى فترة معينة من شبابهم.

كل ما يتلقاه الطفل منذ الميلاد من رعاية يدخل ضمن الإطار العام للتربية، ولهذا فأول مربى للطفل هو الأم رغم تدخل عناصر أخرى بشكل مباشر أو غير مباشر، ويكون إشباع الحاجات الفيزيولوجية المتعلقة بالجوع والعطش من الأوليات فى تربية الطفل ثم يليها الاحساس بالارتياح من جراء تغيير الحفاظات، على ما فى ذلك التحقيق من توابع فى إشباع حاجات نفسية تتزامن والإشباع الفيزيولوجى والمتعلقة بالحب والأمن حيث تنشأ بين الأم والطفل رابطة الحب والألفة والتى أساسها الاهتمام ثم ولأن فترات الرعاية متتالية يجد الطفل نفسه محميا بتواجد الأم معه كلما أفاق، ولهذا وبعد شهور قليلة يقلق لغيابها ويطالب بحضورها من خلال البكاء كلما وجد نفسه وحيدا.

وإذا حدث لأسباب معينة انفصال الطفل عن أمه أصيب بقلق وهلع «قلق الانفصال الذى قد يتطور فيما بعد إلى فوبيا اجتماعية» يتحول إلى تعلق شديد بعد اللقاء فيظل الطفل متشبثا بأمه لا يفارقها ويتبعها أينما ذهبت مما يفوت عليه فرصة تطوير مهارات اجتماعية «اللعب مع الأطفال، الذهاب فى مشاوير». وإلى جانب الأم، يألف الطفل أفرادا آخرين يتعود على رؤيتهم كالاخوة والأب، ولأن رابطته بالأم تكون قوية فإنه سيحب كل من تحب أمه «تجالسهم وتضحك معهم» وسيكره كل من تكره «تنفر منهم أو تتخاصم معهم».

قد يكون هؤلاء الأفراد ضمن العائلة الكبيرة: جدته «أم ابيه» أو أعمامه، ويكون ذلك سببا فى تأزم وضعيته الاجتماعية «عدم الارتياح لهم، نقص الثقة بهم»، أو الجيران مما يحول محيط الطفل من المريح إلى اللاأمن.

ويبدأ الطفل فى اكتساب اللغة منذ سن الثانية وتظل فى تطورها وهى وسيلته للتوصل وللتكيف بحيث تسمح لهم بفهم الآخرين وتمكنه من الرد عليهم وبالتالى تنشأ الرابطة الاجتماعية، والطفل الذى يكثر التواصل بالكلام يكتسب خبرات ويطور مهارات أكثر من الطفل الذى يلتزم البعد عن الآخرين «الانسحاب». وفى حدود سن الرابعة يبدأ الاتصال مع الأطفال وتحقيق الصحبة فى اللعب وربما الانتماء إلى مؤسسات «مدرسة المسجد، الروضة».

إن مستوى تكيف الطفل فى المؤسسات والمحيط الجديد يعكس وضعيته النفسية فمنهم من يتأقلم بسهولة ويكون ذلك مصدرا لسعادته، ومنهم من يظهر العدوان وكثرة الخصام أو المليل إلى الانسحاب ورفض الاندماج، ولهذا فسلوك الطفل فى الشارع والروضة يبعث على الارتياح أو يحث على تدارك الوضع وتصحيحه فى حالة الأزمة حتى لا يتفاقم. ويستهل الطفل المدرسة فى سن السادسة ويبدأ مشواره التعليمى بمستوى قدراته يديره الوالدان ضمن مشروعهم المستقبلى «ماذا نريد للطفل أن يكون!» يحتاج الطفل هنا إلى متابعة خاصة وإدارة دائمة، فهو فى موقف تحصيل علمى وتطوير معرفى وقدرات وهو أيضا فى موقف علائقى اجتماعى واسع «زملاء كثيرون»، فقد يحتاج إلى سند تعليمى أو سند لحل المشكلات الأخرى وبالتالى فمهارة الطفل تتبع مهارات الوالدين واتجاهاتهم.

أما أن يلقى الطفل من والديه التسهيل فى فهم المواد التعليمية والتشجيع لبذل جهد أكبر، وأما أن يلقى الذم والتوبيخ لعدم قدرته على فهم أمور يراها الوالدان بسيطة وكل الأطفال يفهمونها؟! ويشرعون فى محاولة إفهامها له فى جو يسوده التقليل من شأنه فيتكون لديه شعور بالنقص ونفور من فكرة اللجوء إلى الوالدين فى حالة مواجهة الصعوبات، واحتمال اتهامه بالتفاهة وعدم حب الدراسة وقلة الجهد المبذول

عندها يبدأ بالنفور من الدراسة والمدرسة بسبب صعوبات لا يستطيع تجاوزها لوحده ولا يمكنه الاستعانة بغيره.

فيتحول حق الطفل فى المساعدة إلى محاسبة على مستوى قدراته «ذكاء» لا يمتلكه مما يفوت عليه فرصة امتلاكه «تطوير ذكاء أكبر». ويتأثر الطفل كذلك بطريقة الوالدين فى التعامل مع الآخرين وفى حل المشكلات فبعضهم يعلم الطفل الحيلة والاحتيال ويسمونها شطارة والبعض الآخر الخوف والتجنب ويسمونها مسالمة والبعض الآخر يتدخل فى مشكلة طفله مع أطفال آخرين باسم المدافعة. إلخ فيتطبع الطفل بسلوكات تميل إلى السواء والمسالمة أو الاعتداء أو الانسحاب.

مشاكل فترة المراهقة

وعندما يصل الطفل فى فترة البلوغ ويدخل فى مرحلة «المراهقة» تكون حالته حينها رهن ما حصل فى طفولته وقد يتبع فى التعامل نفس الطرق السابقة التعلم ويزداد ميله وحاجته لفرض الذات وإثباتها داخل الأسرة وفى المدرسة ومع الزملاء ولهذا فالطفل الذى تلقى قدرا من القمع قد ينفجر فى هذه الفترة ويتمرد «أفعل ما أريد وكما يحلو لى»، وقد يستسلم لنفس القمع وفرض الحماية وينسحب فى انكسار، وقد يظل على حريته التى عهدها منذ الصغر، وقد يحصل من والديه على حرية أكبر من ذى قبل بحجة أنه أكبر وعليه أن يتعلم لوحده الحياة.

ويميل المراهق إلى مزاولة بعض الأنشطة أو الهوايات ضمن جماعة الرفاق، وقد يحسن اختيارهم وقد يسىء وقد يتتبع الوالدان أمر صحبته فيعارضونها أو يرضخون. وفى كثير من الحالات فى فترة البلوغ والدخول فى المراهقة يتراجع شئ ما مستوى التلميذ وهذا أمر طبيعى لأنه فى فترة تتطلب منه بذل جهد للتكيف معها وبالتالى فانشغاله بالظواهر الجسمية وما يصاحبها من انفعالات قد ينقص من تركيزه على الدراسة ومنه تقهقر الدرجات، ولكن بعض الأولياء لا يفهمون ذلك ويهولون الأمر خوفا على طفلهم المراهق وظنا منهم أنه صار مهملا فى دراسته فيبدأون بتضييق الخناق عليه وتحذيره من أمور شتى «الضغط الشديد»، أو العكس أن يهمل المراهق دراسته بشكل ملفت للانتباه ويظن الأولياء بأنها فترة عابرة «التراخى الشديد».

وغياب التواصل هنا والصحبة الراشدة قد تعرض المراهق إلى تجارب سيئة، فالفضول الجنسى «الاستكشاف» قد يبعث بالمراهق إلى التعرض لأطفال صغار «قد يكونون إخوته مما يحرف العلاقات الأخوية»، قد يعرضه للاحتلام، أو الإشباع ضمن الصحبة «الممارسة مع نفس الجنس» وكل هذا قد يطبع المراهق ويصير له اتجاه، واستحلاء ذلك قد يدفعه لإيجاد وسائل أخرى للإشباع أكثر تسترا كاللجوء إلى بعض العقاقير «المخدرات». والدوافع التى تقود المراهق لتعاطى المخدرات، على كثرتها، لا تحمل نفس الأهمية ولا تؤدى إلى نفس الحتمية، فالمراهق أما أن يتوقف عن التعاطى وأما أن يستمر فى التعاطى المتباعد وأما أن يصير مدمنا، فالفضول والعدوى والبحث عن الشهوى كلها دوافع للتعاطى ونادرا ما تحدث الإدمان ولكن التعاطى بدافع العلاج الذاتى للصعوبات النفسية الاجتماعية يزيد من احتمال الإدمان ويعكس إخفاق التربية فى تكوين فرد متزن وواعى ومسئول وقادر على مواجهة المشكلات والصعوبات وتجاوز الاحباطات.

تؤدى التربية الصحيحة إلى مراهقة سوية، بينما تنتج المراهقة المتأزمة عن أخطاء نتيجة الإهمال أو إساءة التصرف مما يقود المراهق إلى إحدى الحالات الثلاث: إما الانسحاب أو العنف أو التمرد أو الانحراف، وهو فى كل هذه الحالات عرضة لتعاطى المخدرات، فالمراهقة المتأزمة تعكس الوضع النفسى للمراهق سواء نتج عن مشاكل اجتماعية أو تربوية ولا يمكن للمشاكل الاجتماعية وحدها أن تأزم حالة المراهق، فكثير من المراهقين ومنذ طفولتهم يجدون فى المدرسة عزاء جيدا لهم.

دور الأسرة فى الادمان

ومن النقائص التربوية، وفى غياب مشاكل حقيقية، التدليل الزائد للطفل وإتاحة حياة الترف اللامحدود مما يجعل المراهق ينتهج سلوكا نزويا فيتعاطى المخدرات فى شلة مع الجهل بالعواقب أو تقديم الامتيازات على المخاطر «الاندفاع» وهو أمر يعكس عدم القدرة على ملء الفراغ بما يفيد، فيتعزز سلوك المتعاطى بالشعور بالملل. ومقابل ذلك فالطابع المتزمن الذى ينتهجه الوالدان والمشبع بالأوامر والغروض مع نقص الارتياح الوجدانى وانفراد الوالدين بتقرير مصير طفلهم ونقص فرص التنفيس مقابل كم الجهد الجاد قد يشكل عامل ضغط شنيع يخلق صراعات داخلية أو خارجية لدى المراهق الذى قد يلتمس العلاج فى المخدرات. كما أن فضح سوء تفاهم الوالدين أمام الطفل أو المراهق وكثرة المشاكل وربما غياب أحد الوالدين غضبا وتهربا من المشاكل، يشعر المراهق بالتفكك ونقص الرقابة «الإهمال» مما يؤدى إلى احتمالات كثيرة: حرمان التواصل الوجدانى، الاحباط، الانطواء، الاكتئاب، نقص الدافعية «صعوبات مدرسية»، فقدان الأهمية، تقدير الذات منخفض، الشعور بعدم الاهتمام، الشعور بالضياع، الابتعاد عن الجو الأسرى. وفى هذا الجو من الانكسار النفسى، وفى حالة توفر النماذج السيئة، تكون محل تأثير قد يرى المراهق فى المخدر ملجأ ومسكنا فلا يتنزه عنه.

يرافق تعاطى المخدر اندفاعا وتهورا وهو خاصية كثير من المراهقين ولأنهم غير قادرين بعد على جمح نزواتهم والتحكم فى انفعالاتهم يكونون فى أمس الحاجة للتعقل الذى لا يتأتى إلا من خلال الصحبة الراشدة فإذا غاب الراشد المتعقل الملازم للمراهق يكون مصير المراهق صوب اختياره وكم سيسئ الاختيار إذا ساء حظه فى من يرافق!.

غياب الوازع الدينى

وبين ما هو مادى لابد منه ونفسى لا استغناء عنه، قد يهمل الوالدان تقوية الوازع الدينى وتوثيق صلة الطفل والمراهق بالله، فالحياة الروحية مع ما تتيحه من استعلاء وترفع تكون وسيلة مساعدة فعالة على تجاوز الأزمات واستبقاء الشعور بالارتياح والسكينة، فإذا جعل الله هو الرقيب وهو الرفيق كم تكون نسبة احتمال الانزلاق فى المحظور؟!. إن مهمة التربية أن تهذب السلوك وتصبغ الدوافع فى قالب مقبول مع إتاحة تلبيتها بالطرق السليمة الموافقة لمبادىء وقيم المجتمع وفى أوقاتها المناسبة، ولهذا فهى تزود الفرد بمختلف الكيفيات لتحقيق ذلك، وليست الأسرة وحدها مسئولة على ذلك فهى تتقاسم المهام مع كل المؤسسات الاجتماعية المفتوحة كالشارع والمنظمة كالمدرسة والنوادى، فليس الفرد حصيلة ست سنوات قضاها بشكل مكثف مع أسرته وإنما هو فى تفاعل مستمر مع كل المواقف وهو فى حال انتقال وتغير مستمرة إلى أن تصل إلى مرحلة استكمال البناء: إما الرشد أو التية.

والتربية علوم وفنون تحتاج إلى تلقين، وفى غياب ذلك، تعتبر المجهودات التربوية التى يبذلها الوالدان اجتهادات مشكورين عليها فى كل الأحوال. وتربية الأجيال ليست قضية أسر وإنما قضية دولة ولهذا لابد أن يخطط لها وتنظم حتى تضبط وتجند كل الوسائل للنشأة الصحيحة لأجيال متعاقبة.